الفونيم التطويحي و أثره في تحديد الدلالات اللغوية

د.فاطمة ولد حسين
جامعة الجزائر2 بوزريعة

Abstract :

This study aims to clarify the different communicational functions of the language through its phonetic and phonological structure that is based on three necessary elements:

The phoneme- the accent – the intonation.

It is noted that the segmental phoneme undergoes semantic changes set by the accentual factor (supra segmental phonemes) that follows it in the context as:

The phoneme, the vowel reduction and the accentual-intonational interaction. This situation creates a unique musical scale that expresses judgements and values.

Their aim is to communicate ideas from several ways under civilisationel, cultural, sociological factors... etc.

Abstract :

La communication que je me propose de vous présenter vise à la compréhension des différentes fonctions des langues communicationnelles à partir de sa structure phonétique-phonologique qui s'articule notamment sur trois éléments indispensables :

Le phonème- l'accent – l'intonation.

Il est retenu que le phonème segmental subit des transformations sémantiques qu'imposent le facteur accentuel (phonème supra segmental), qui l'accompagne dans le contexte tels :

le phonème, l'apophonie et la réaction accent-intonationnelle. Cette situation crée une gamme musicale exceptionnelle exprimant jugements et valeurs.

Leur but est de transmettre les idées par différentes voies soumises à des facteurs civilisationnels, culturels, sociologiques etc…

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح وظائف اللغات الإفهامية والتبليغية من خلال نظامها الصوتي الفونولـــوجي الـــذي يعتمـــد أساسا ثلاثة عناصر هامة هي الفونيم والنبر والتنغيم. ويتعرض الفونيم المقطعي لتغيرات دلالية يفرضـــها عامـــل التطـــويح أي الفوقطعي المرافق له في السياق كالأصوات والحركات الإعرابية والتفاعل النبر- النغمي الذي يُحدث إيقاعا موسيقيا، تعبيرا عـــن أحكام و قيم يُراد منها تبليغ الأفكار وتجسيدها بطرق مختلفة، تخضع لعوامل حضارية –ثقافية و سيكولوجية و غيرها.

اللغة ظاهرة صوتية خاصة بالإنسان، ووقفا عليه، تختلف اختلافا كليا عن سائر الظواهر الأخرى غير اللغوية– السميولوجيا–. ومن ثم فإن دراستها العلمية تقتضي منا التركيز على الأصوات التي بوسعها أن تولد عددا كبيـــرا مـــن الكلمات ذات الدلالات المختلفة.

"فالأصوات هي الظاهرة الأولى للأحداث اللغوية، كما أنها بمثابة اللبنات الأساس التـــي يتكـــون منهـــا البنـــاء الكبير"[1]، فيكون بذلك علم الأصوات أحد فروع علم اللغة والقاعدة التي ينبني عليها صرح علم اللغة بمستوياته اللغويـــة المختلفة .

و بما أن موضوع البحث هو الفونيم التطويحي أي الفونيم فوق مقطعي (suprasegmental) فإننا سنتناول بالدراسة علم الأصوات الوظيفي، و هو المحور الرئيس الذي يجمع بين الأصوات اللغوية ووظيفتها الدلالية في اللغة.

1 علم الأصوات الوظيفي(Phonologie):

تثبت الدراسات الصوتية الحديثة أن علم الأصوات الوظيفي هو دراسة الصوت في سياقه اللغوي، لأن الأصوات لا تقتصر على "الدراسة الطبيعية فحسب،بل تخضع لقواعد معينة في تجاورها وارتباطها ومواقعها وكونها في هذا الحرف أو ذاك وإمكان وجودها في هذا المقطع أو ذاك وكثرة ورودها وقلته ثم دراسة الظواهر التي لا ترتبط بالأصوات (الصحاح والعلل) من حيث هي، بل بالمجموعة الكلامية بصفة عامة، كالموقعية والنبر والتنغيم"[2].

والمتتبع لقول تمام حسان في سياقه هذا، يفهم أنه يريد الوصول بدقة إلى قيمة الصوت الدلالية أي الفونيم ، لأن الفونيمات كما تشير إليه جميع الدراسات الصوتية، تؤدي دورا فعالا في تحديد دلالات الكلمات. تقوم الدلالة الصوتية عادة على وظيفة الإفهام ، من خلال نظام صوتي يعتمد ثلاثة أمور هامة وهي الفونيم والنبر والتنغيم.

تهتم اللغات بحقائق صوتية و فونولوجية لتحديد موضع النبر،كما يقع النبر في بعض اللغات على أي مقطع وفقا لأهواء المتكلم و هذا يدل على أن الحقائق الفونولوجية لا تكفي وحدها لتقرير موضعا للنبر و تحديده.

غير أن هناك تشابكا كبيرا ، في نظر الفونولوجيا بين نغمة الكلمة و نبرها ،ينتج عنه تفاعل يعرف في الفونولوجيا ب(النبر -النغمي) للغات حيث يعد في كثير من الأساليب حالة متوسطة بين نبر الكلمة و نغمتها .

فالكلمة التي يختار النبر فيها مقطعا واحدا و الجملة التي يختار فيها النبر كلمة واحدة ، يجعلنا نقف أمام فرق وظيفي أساس ينجر عنه تمييز بين نوعين من الوظائف النبرية .

1 – وظيفة نبر الكلمة في تحديد إيقاع اللفظ

2 – وظيفة نبر الجملة التي تقع بين ظاهرتين اثنين هما :

أ. وظيفة نبر الكلمة في تحديد إيقاع اللفظ

ب. وظيفة نبر الجملة للإشارة إلى أهم العناصر ذات المعنى فيها

و بالتالي فان الوظائف –المذكورة سابقا– تؤدي إلى إحداث تفاعل بين نبر الجملة و تشابكها مع الإيقاع ،فتفرز لنا دلالات واضحة تمثل الأصوات اللغوية التي يحتويها السياق.

و تقع هده الإفرازات الدلالية أساسا على الفونيم الذي يشكل الوحدات الصوتية في النظام الصوتي للغة[3] فهو إذن، أصغر وحدة صوتية غير دالة تستطيع التمييز بين المعاني حسب موقعها في الكلمات وبالتالي إعطائها وظائف دلالية مختلفة.

والفونيم نوعان:

1. فونيم مقطعي Segmental: ويشمل الصوامت والصوائت.
2. فونيم تطويحي– أي فوق مقطعي Suprasegmental: ويشمل النبر والتنغيم والفواصل[4].

و يمثل الفونيم التطويحي (فوقطعي) المحور الرئيس في دراستنا هده ،حسب ما تقتضيه منهجية البحث.

قد يتعرض الفونيم المقطعي لتغيرات دلالية يفرضها عامل التطويح المرافق له في السياق .و يتمثل ذلك في السمات الفوقطعية كالصوائت أو الحركات الإعرابية و التفاعل النبر النغمي الذي يُحدث في الجملة إيقاعا موسيقيا تتأثر له النفوس .

1)الصوائت ؛الحركات الإعرابية (APOPHONIE) :

لقد أومأ كثير من اللغويين و على رأسهم "ابن جني" في كتابه الخصائص إلى هذا النوع من الدراسات الصوتية حيث تطرق إلى الصوائت، أي الحركات، فأكد على الدور المماثل الذي تؤديه كغيرها من الصوامت، فتبديل الصوائت(Apophonie) يؤثر في تغيير دلالات الكلمة، وفي ذلك يقول: "الذَل في الدابة ضد صعوبة، والذُل للإنسان، و هو ضد العز، وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان والكسرة للدابة، لأن ما يلحق الإنسان أكبر قدرا مما يلحق الدابة"[5].

يتضح مما سبق ذكره، أن ما جاء به ابن جني حول تبديل الصوامت أو الصوائت على حد سواء، هو آية في إبراز قيمة الفونيم الدلالية عن طريق توليد الدلالات المتعددة التي يصل إليها، وذلك من خلال الإجراء الذي يشهده الانتقال من أضيق معنى للصوت المجرد إلى أوسعه في الكلمة التي ينتمي إليها، ثم إلى المعاني الجديدة التي تنتجها التراكيب المختلفة و تميزها كليا عن معاني الكلمات الإفرادية.

فالفونيم إذن؛ هو الذي يوحي بدلالة الكلمة في بنيتها الأولى، وبالتالي توحي هذه الأخيرة بدلالة أعم في الجملة.

والفكرة نفسها تبناها سابير(Sapir) بمصطلح "أصوات مثالية" ليقصد بها الفونيمات من الناحية العقلية، فيقول: "يوجد بالبديهة مكان للصوت... في نظام لوجود إحساس عام بعلاقته بالأصوات الأخرى"[6].

فهو يجمع بين الأصوات والإحساس الفطري الذي تحدثه هذه الأصوات للوصول بها إلى المعاني المقصودة و إدراكها في التعبير, والمعلوم في المجال الصوتي الوظيفي أن هناك أصوتا مميزة يمكنها تلوين الكلمات وتحديد دلالاتها بدقة و هي كالتالي:

2) الصدى الصوتي للمعنى أو (التمثيل الصوتي للمعنى):

المعروف عن اللغة أنها تتميز بتلك العلاقة الوطيدة التي تجمع بين مبنى الكلمة و معناها دون أن يتخللها انقسام في انسجامهما و تناسبهما تحقيقا للغرض الوظيفي الذي يهدفان إليه.فقد استخدمت الأصوات المتلائمة نطقا و منطقا للتأثير في نفوس المخاطبين تعبيرا عن أحكام و قيم يراد منها تبليغ الأفكارو تجسيدها بطرق مختلفة تخضع لعوامل عديدة ذهنية وسيكولوجية و غيرها. و هذا ما أدى إلى تسمية الكلمات "بالصدى الصوتي للمعنى." لأنه لا يمكن فصل الصوت عن تأثيراته الأخرى التي يتم فيها داخل السياق.

وعلى هذا الأساس، يمكننا توضيح الدور الذي يؤديه الصوت الوظيفي في تشكيل الكلمات و مناسبتها للمعنى من خلال الآيات القرآنية ،التالية:

1- قال الله تعالى (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ)[7].
2- قال الله تعالى **(فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)**[8]
3- قال الله تعالى **(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ)** [9] .
4- قال الله تعالى **(وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ)** [10].
5- قال الله تعالى **(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا)**[11].

6- قال الله تعالى (**فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**)[12].

7- قال الله تعالى (**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا**)[13].

ان المتمعن في هذه الآيات القرآنية ، يجد تشكيلها الصوتي متضمنا لمجموعة من أصوات "العين" وهو صوت طبقي رخو منفتح، "والقاف" لهوي مهموس (من أقصى اللسان) للدلالة على إحساس المخاطب بالضيق والحسرة والحدة.

فكأن بنية الكلمات التي وردت فيها هذه الأصوات قد ضاقت بما تحمله من معان عسيرة (الألم ،المرارة،الحسرة ،اليأس...) وهو ما شعرنا به عندما واجهتنا الحروف المسخرة للدلالة على يأس المرأة وهي في سن متأخر من عمرها. أما التوازن بين المقاطع المغلقة التي أعطت للحقائق نوعا من الحسم والحدة التي تميزت بها المفاجأة عند سماع الخبر من جهة والمقاطع المفتوحة التي تمثل الهدوء والطمأنينة من جهة أخرى، فإن الآيتين التاليتين تثبتان لنا ذلك بوضوح:

قال الله تعالى (**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ**) [14].

قال الله تعالى (**وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**)[15] .

إن تتابع المقاطع المفتوحة بتوظيف أصوات اللين في جميع ألفاظ الآيتين ،نجدها في الآية التالية، تدل على تعجب المرأة (سارة) من موقفها وترك أمرها لقضاء الله:

قال الله تعالى (**قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ**) [16].

و بالتالي فهي توحي لنا بنوع من التوقف العقلي والنفسي طرحته الحقائق أمام سارة زوج إبراهيم (عليه السلام) في حدة وحتم، و أحدث الاستفهام الوجودي فيها إيقاعا هادئا في آخر الآية بإدخال حروف اللين.

وما جاء في الآية التالية:

قال تعالى (**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ**) [17]، دلالة على هدوء النفس واستقرارها لعمل ينم عن إخلاص الملكة في حكمها الراشد لقومها.

فعبارة (ما كنت قاطعة أمرا) توكيد مطلق لما كانت تقوم به بلقيس ملكة سبأ في استشارة قومها في كل صغيرة وكبيرة، وارتياحها لهذا السلوك المتميز في عصرها. فقد استخدمت حروف اللين استخداما محكما، دلالة على اقتناعها الكامل بما كانت تقوم به.إضافة إلى ذلك توظيف حرف" ما" النافية في الجملة الاسمية لنفي الخبر"قاطعة" التي تحمل دلالة الصرامة و القساوة و الغبن لاحتوائها على حرفي "القاف و العين" .فقد تكون المعادلة الدلالية لهذه الجملة كالتالي : ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون => أنا لا أنفذ أمرا إلا بشهادتكم .

وهناك ظاهرة أخرى ملفتة للنظر تكمن في توالي الصفات في بعض الآيات القرآنية وتوالي العطف في بعضها الآخر، ويمثل هذا وجها من وجوه التوكيد على التحلي بها والتخلي عن بعضها الآخر لنيل درجة الثواب والجزاء عند الله. وكذلك التدرج الرتبي في ذكرها لتقريبها إلى العقل الإنساني، دون سأم أو ملل لما تتميز به من السرعة في ذكرها.

ومن أمثلة تتابع الصفات قوله تعالى: (**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**)[18].

ومن صور تتابع العطف قوله تعالى (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[19].

إن ما يمكن استخلاصه من هذا الكم الهائل من الألفاظ الحسنة، أنها جاءت متضمنة حروف اللين (الألف أو الياء) في مجموعة من الصيغ كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم، وأن وقوع تناوب الإيقاع الموسيقي بين إعلاء الصوت تارة وخفضه تارة أخرى، عن طريق ثنائية الألف والياء قد أحدث وقعا عاطفيا عميقا في نفوسنا لما أضفاه من جمال على الألفاظ وحسن في معانيها. علما أن الإيقاع الموسيقي، بما فيه من عناصر أخرى من تنوين ونبر وتنغيم، لم يطغ على البناء المعنوي للآية.

3)التنويـــن (NOUNATION):

المعروف في التنوين أنها ظاهرة تميزت بها اللغة العربية عن سائر اللغات الأخرى، ولها أثر كبير في علوم العربية كالنحو والصرف والعروض والقراءات، فكانت مادة للنحو عند اللغويين قديما وحديثا، إذ أولوا لها اهتماما بالغا، فأفردوا لها أقساما في مختلف مؤلفاتهم.

والتنوين عبارة عن نون ساكنة تلحق آخر الاسم لفظا لا كتابة، وعند علماء الأصوات هي حركة قصيرة بعدها نون[20]. فللتنوين دور متميز في تحديد الدلالات داخل التراكيب،و بحكم وظيفته الاختزالية ، فهو يأتي بديلا عن حرف أو كلمة أو جملة[21].

أثر التنوين في تحديد الدلالات اللغوية:

إن التنوين ظاهرة بارزة في لغة القرآن،حيث تمثل المفتاح الصوتي لكلماتها وتتوج المقاطع المفتوحة لكثرة وجودها فيها وتتابعها ، الأمر الذي جعلها تحقق حركة ذات وقع عميق في نفس المخاطب مثلما وجدناها حاضرة في تجربة المرأة[22]– في الآيات السابقة– العقلية والنفسية. وما زاد دلالة الموقف قوة هو تلازم التنوين مع العين التي تكرر وجودها في صفات المرأة كلها، إذ مثلا صوتيا ذلك الألم الذي سيطر على المرأة العجوز ليأسها و إحساسها بالمرارة لوضعها الوجداني العسير في مواجهة الموقف.

أما في الآيتين التاليتين :

قال الله تعالى **(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)**[23].

قال الله تعالى **(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)**[24].

نجد أمرا آخر يشدنا إلى قراءتها بتشوق ولهفة شديدين، ويتمثل هذا في النون التي ختمت بها الآيات، وكانت من أحسن الحروف التي عرفتها الآيات للوقع الموسيقي الذي أحدثته في نفوس المخاطبين والتشويق إلى متابعة أثرها الموسيقي الجميل والرغبة في إعادة سمعها مرارا وتكرارا.

النون هنا تحمل رنينا موسيقيا متميزا تقيدت به الآيات مما جعل لنهاياتها التطريبية صدى صوتيا يتناسب مع تلك النشوة التي تغمر المخاطب حين سماعه إياها.

كلمة "حسان" هي صيغة مبالغة جمعت على غير قياس مثل عجاف وعجفاء وجمعت كذلك للمزاوجة بينها و بين الآي السوابق[25].

هذه المزاوجة خلقت تزاوجا إيقاعيا وموسيقيا زاد النظم القرآني متانة وقوة.

وجاءت الكلمة في الآية وصفا لنساء الجنة الحور، الخيرات، المتفردات بالجمال الذي ليس له مثيل في الدنيا.

4)النبـــر و التنغيم (Accent):

اتفق علماء اللغة على تعريف النبر بأنه الضغط على مقطع معين يكسبه ميزة واضحة في السمع عن المقـــاطع الأخرى[26].

تعرف اللغة العربية ظاهرة النبر[27]الذي عرفه القدماء بالهمز[28] .وكذلك بمطل الحركة[29] لتطويل بعض حركات الكلمة.

وقد ذهب"ابن جني" في كلامه عن حذف الصفة ودلالة الحال عليها حين قائلا "...إن تكون فـــي مـــدح إنســـان والثناء عليه فتقول: كان واللّـــــــــه رجلا فتزيد في قوة اللفظ بالله هذه الكلمة وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها"[30] .

ونجد في القول السابق تطابقا حقيقيا للنبر عند المحدثين، فهي القوة الحادة التي يســـتعملها المـــتكلم فـــي نطـــق الأصوات، و تتمثل قوة اللفظ في العلاقة الجامعة بين النبر وطول المقطع بتطويل الصوت ورفعه، قصد تحقيق المعاني اللغوية وبهذا يلتقي مع معنى النبر بمفهومه الحديث في دائرة الدراسة العلمية و الفيسيولوجية لأعضاء النطـــق التـــي ينتج عنها ارتفاع الصوت وعلوه.

أما قوله "تمطيط اللام وإطالة الصوت بها" فهو النبر بمعناه الحقيقي الذي أكده علماء اللغة في دراساتهم اللغويـــة الحديثة والمقصود منه القوة الحادة المستعملة في نطق الأصوات.

المتمعن في قول ابن جني، يكشف بسهولة عما أومأ إليه في كلامه عن فكرة النبر السياقي الذي أوجزه في كلمات، وإن لم يصرح به، فاستطاع بهذا أن يجمع بين النبر والدلالة الذي اصطلح عليه بالنبر النغمي في أحسن صورة قدمت للدرس الدلالي.

5) التنغيـــم (Intonation) :

هو استخدام تغيرات النغم لأغراض غير معجمية.و لكن اللغات كافة بما في ذلك اللغات التنغيميـــة تســـتعمله استعمالا متزامنا لأغراض معجمية ،فيكون بذلك معدل الفروق و التميزات فيها محددا نسبيا .

والتنغيم من الحقائق الصوتية في اللغات المختلفة، فهو رفع الصوت وخفضه، في أثناء الكـــلام للدلالـــة علـــى المعاني المختلفة للجملة الواحدة[31]، ويكون ذلك نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين الذي يؤدي إلى اخـــتلاف الوقـــع السمعي بتعدد طرق تنغيم الكلمات و اختلاف معانيها.

ويلاحظ في قول ابن جني[32] أنه ربط التنغيم بالنبر، فالتنغيم سواء أكانت نغمته عالية أو منخفضة فهي تتوقف في النهاية على المقطع النووي المنبور قياسا للمقاطع غير المنبورة السابقة له و اللاحقة .

زيادة على معاني التطويح والتطريح والتمطيط والتفخيم والتعظيم التي تعد بؤر النبر النغمي في الجملة، فالموسيقى التي تحدثها تؤدي إلى تغيرات انفعالية تظهر على وجه المتكلم وفي سلوكاته الحركية تبعا للدلالات المختلفة التي تحددها . و على هدا الأساس عرفت اللغة بارتباطها الوطيد بالجانب النفسي لمتكلميها ، فهي لا تصدر عنهم إلا بصورة تنغيمية. و من الأساليب المستعملة عادة، أن نعبر عن تعجبنا ودهشتنا بصيغة سؤال ونريد به الاستفسار و هو الأمر الذي حدث لسارة عليها السلام حين بشرت بولد اسمه إسحاق .

كما تخرج العبارة في صورة تنغيمية منخفضة وهادئة مثلما ورد في حكم" بلقيس " في قوله تعالى (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون)

فالتنغيم ادن ظاهرة تلحق الكلمة المفردة والجملة المركبة على حد سواء فيتأثر بها المستمع و يتعامل معها حسب خلفيته المرجعية الاجتماعية و النفسية لفهم المعاني المقصودة وإدراكها .

– أثر النبر والتنغيم في تحديد الدلالات اللغوية:

بالرغم من عدم التوصل إلى وضع معيار يوصف به النبر في اللغة العربية، يبقى الوقف على آخر المقاطع المغلقة، و هي مقاطع نووية ، أقرب إلى النبر من غيرها لإجلاء الطاقة الدلالية الموجودة فيها كما سيتضح لنا دلك من خلال الآيات القرآنية التالية:

قال الله تعالى (**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**)[33] .

قال الله تعالى (**وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**) [34] .

قال الله تعالى (**وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**) [35] .

قال الله تعالى (**فتحرير رقبة مؤمنة**) [36] .

إن القارئ لهذه الآيات الكريمة ينبر المقاطع المغلوقة للصيغة الواردة فيها، لشعوره بضغوط لغوية عند النطق بها، تستلزمه تسكين آخر الحروف التي يتوقف عندها الكلام.

وفي هذا المجال سنتناول بالدراسة صفة عجوز من الآية الكريمة حيث قال الله تعالى: (قَالَتْ/ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ)[37]، لتحليل صوتي فونولوجي قصد الكشف عن بؤرة النبر النغمي و إجلاء وظائفها الدلالية.

إن أول ما نلاحظه، أن الآية تمثل نحويا جملتين اثنتين:

جاءت الجملة النحوية الأولى (أألد) منبورة متلوة بوقفة قصيرة تصل إلى الانفعال المرفوق بارتفاع في الصوت إلى درجة عالية جدا من النظام النغمي، ويعود ذلك إلى إظهار النغمة التعجبية والاستفسارية في صيغة سؤال بتشديد الوحدة الصرفية (أألد).

– والجملة (أألد) تمثل نحويا جملة فعلية استفسارية، جاءت منبورة لأنها مبنية على مقطع واحد تسبقها همزة الاستفهام لتبين الغرض منها. علما أن المقطع النووي الواحد هو الذي يتلقى النبر فتكون فيه قوة سمعه أشد من غير المنبور - مقاطع سابقة و لاحقة- مما يؤدي إلى علو النغمة و ارتفاعها .

– أما الجملة الثانية من الآية فتتمثل في (وأنا عجوز) حيث يثبت لنا من خلال تفاعلنا معها –الجملة الخبرية– عند قراءتها، أن الذبذبات الصوتية للمقاطع المتتالية في الجملة تبدأ من المستوى المتوسط الذي يلي علو الصوت وقوة سمعه في الجملة الفعلية ، لتصل في نهاية نطقها تدريجيا إلى انخفاض الصوت. والملاحظ في الجملة الخبرية أنها تبدأ بواو الابتداء الذي يفرض علينا الوقوف عندها لحظة قصيرة ليرتفع الصوت من جديد مع "أنا" الذي يدل نفسيا على عزة المرأة وكرامتها، لينخفض مرة أخرى مع عجوز دلالة على اليأس و الحسرة فيكون نطقها كالتالي: وأنا عجـــــوز.

إن عنصر المفاجأة المتمثل في النبأ العظيم الذي بشرت به "سارة" لمجيء "إسحاق ويعقوب" قد أدى دورا رئيساً في التمييز بين الأصوات النغمية. فالمد في آلد هو دلالة على انفتاح وانشراح المرأة و سرورها عند تلقيها الخبر، ولكن سرعان ما يتوقف ذلك عندما تتذكر أنها في سن يحول دون تحقيق هذه الأمنية. وهو ما نجده في الواو الممدودة من الكلمة (عجـــوز) التي تدل على ثقل الحركات نطقا ومد الشفتين إلى الأمام تعبيرا عن وطأة الموقف العسير الذي تعيشه المرأة.

إن السمة الأكثر بروزا في التنغيم و التي تسمح بالتنوع في اللغة هي نمط النغم النهائي أو النواة التي تؤثر عادة في مجموع النغمة كاملة من المقطع النووي إلى ما بعده .

و يظهر التمييز الذي حصل في هذه الآية الكريمة، من النوى الصاعدة في الجملة الفعلية والهابطة في الجملة الخبرية و الفروق و التميزات الفرعية التي تضمنتها كل منهما .

أما النوى الهابطة (عجوز) فهي مرتبطة عادة بالجملة الخبرية و النوى الصاعدة مرتبطة بالسؤال الذي جاءت به الآية .

و المقطع النووي هو الذي يحمل نبر الجملة أساسا لأنه يحتوي على نواة التنغيم ، فيجب أن يوضع ،(المقطع النووي) في الجملة المؤلفة من أكثر من مقطع ،على الكلمة الموضوع عليها نبرها (أألد وأنا عجوز)

وخلاصة القول، إن ما تضمنته هذه الآية الكريمة من جملتين فعلية–استفهامية واسمية–خبرية، لدليل قاطع على اصطدام المواقف التي عاشتها سارة في لحظة واحدة ،مما جعل المخاطب يقف حائرا و منبهرا في الوقت نفسه أمام المفارقات الدلالية التي عكست، في ومضة عين، جانبا نفسيا - لغويا يتمثل في الوجهين التاليين :

أ– الوجه الظاهر وهو استفهامي وتعجبي يراد به استفسار لوضع غير منطقي(حالة اليأس).

ب – الوجه الخفي المضمر في الآية و هي فرحتها في تحقيق هذه الأمنية التي تسعد لها كل امرأة في حياتها.

إن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة أن الفئات الفونولوجيةأو الفوقطعية –المذكورة في البحث– قد عالجت المتغيرات ، لكن وصفها كان عسيرا و معقدا؛لأن التطابق بين الفئات الفونولوجية و المتغيرات الصوتية لم / و لا / يسمح بانفراد فئة منها لتختص بجانب صوتي معين، فكان امتزاج الفئتين أوالثلاثة معا أمرا ضروريا يفسح المجال لاتحاد نبر الكلمة بأنماط نبرية أخرى، مثلما كشف عنه جليا تشابك عنصري النبر و التنغيم في تحديد دلالات الآيات القرآنية السابقة .

المصادر و المراجع

- **القرآن الكريم : برواية ورش عن الإمام بن نافع.**

1- زين كامل الخويسكي: الجملة الفعلية في شعر المتنبي (منفية واستفهامية ومؤكدة)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص 278.

2- تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص139.

3- عبد الفتاح المصري، الصوتيات عند ابن جني في ضوء الدراسات اللغوية العربية المعاصرة،مجلة التراث العربي: العددان 15 أبريل، السنة الرابعة، و16 أبريل، دمشق1984، ص 263. وانظر أيضا محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1995، ص 200-201.

4- فونيم مقطعي = Phonème segmental

فونيم تطويحي (أي وحدة صوتية فوق الحرف) = Phonème suprasegmental

السمة الفوقطعية أو السمة اللحنية، خاصية صوتية تتصف بها القطع التي تتعدى الصُـوَيت المفـرد (الفـونيم). النبـر والتنغـيم والمرسمات الفوقطعية (فوق القطعة الدنيا).

انظر:

139 - 127_ ص ,1989المعجم الموحد للمصطلحات اللسانيات (انجليزي-فرنسي-عربي) تونس

ويرى أكثر اللغويين أن الفونيم هو أصغر وحدة صوتية أو صورة ذهنية وهو بذلك ليس صوتا منطوقا بالفعل وإنما المنطوق بالفعل هو صوره وأمثلته الجزئية أو ما يسمى في الاصطلاح اللساني الحديث (Allophone) وهي التنوعات الصوتية التي يتحقق بهـا الفونيم ويتوقف ذلك على موقع الصوت في الكلمة وعلى الأصوات المجاورة .

أنظر: ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ، ط 3، 1987، ص 88.

5- ابن جني المحتسب، تحقيق علي الجندي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفاتح إسماعيل شبلي، القاهرة 1368هـ الموافـق لسنة 1948م، جزء 2، ص 18.

6- سابير من أصحاب النظرية النفسية: استعمل في مقاله المعنون "أنماط الأصوات في اللغة" الاصطلاح "أصوات مثالية عن تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 161.

-Sapir : Sound paterns in language, vol 1, 1945, pp 37-51 and la réalité psycologique des phonèmes, Journal de psych, Jan- APR, 1933.

7- سورة هود، الآية 72.

8- سورة الذاريات، الآية 29.

9- سورة هود ، الآية 71.

10- سورة آل عمران، الآية 40.

11- سورة النور، الآية 60.

12- سورة النساء، الآية 129.

13- سورة النمل، الآية 32.

14- سورة الذاريات، الآية 29.

15- سورة آل عمران، الآية 40.

16- سورة هود، الآية 72.

17- سورة النمل، الآية 32.

18- سورة التحريم، الآية 5.

19- سورة التحريم، الآية 5.

20- إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو- المصرية، القاهرة، طبعة 1972، ص 239.

21- أنظر:

ابن هشام الانصاري (أبى محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف أبن أحمد بن عبد الله): أوضح المسالك، دار الجيل، بيروت، طبعة 5، 1975، الجزء 1، ص 15. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، طبعة 7، 1986، ص 209-211.

- عوض المرسي جهاوي، ظاهرة التنوين في اللغة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة و دار الرفاعي، الرياض، طبعة1، 1982، ص 99-100.

- سورة الزلزلة، الآية 4.

- ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت (د ت)، الجزء 9، ص 30.

انظر: الآيات الواردة في هذا المبحث: الآية رقم 1،2،3،4،7.

أما الآية (5) (و القواعد من النساء) فجاءت معرفة بـــ (أل) التعريف مما أدى إلى إلغاء التنوين والتقدير وقواعد من النساء.

وكذلك الآية (6) (وتذروها كالمعلقة) يسبقها حرف التشبيه مما غير في حركتها والتقدير (فتذروها معلقة)

22- انظر:

الآيات الواردة في هذا المبحث: الآية رقم 1،2،3،4،7.

أما الآية (5) (و القواعد من النساء) فجاءت معرفة بـــ (أل) التعريف مما أدى إلى إلغاء التنوين والتقدير وقواعد من النساء.

وكذلك الآية (6) (وتذروها كالمعلقة) يسبقها حرف التشبيه مما غير في حركتها والتقدير (فتذروها معلقة).

23- سورة الرحمن، الآية 70.

24- سورة الرحمن، الآية 76.

25- محمد السيد الدوادي، من كنوز القرآن بحوث لغوية متنوعة، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص 177.

26- من بينهم: ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ص 93.

27- انظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو- المصرية، طبعة 3، 1976، ص 46. وعبد الرحمن أيوب: محاضرات في اللغة، مطبعة المعارف بغداد، 1966، ص 145.

28- ابن منظور: لسان العرب، مادة (نبر).

والنبر همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها، ولما حج المهدي قدم الكسائي يصلي في المدينة فهمز، فأنكر أهل المدينة عليه وقالوا: تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن.

29- ابن جني: الخصائص، الجزء 2، ص157- 158.

30- المرجع نفسه، الجزء 2، ص1370-371.

31- رمضان عبد التواب: المدخل في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 2، 1985، ص 106.

32- النبر في الصفحة السابقة.

أنظر:

ابن جني: الخصائص، جزء 3، ص 370.

33- سورة مريم، الآية 20.

34- سورة مريم، الآية 28.

35- سورة النساء، الآية 25.

36- سورة النساء، الآية 92.

37- سورة هود، الآية 72.